قصة قصيرة

حالة

حنون مجيد

مثل شبحين متوحدين يطويان الأرض. مثل رجلين ضلا طريقهما يهيمان. ليس من أحد يعرف وجهتهما، أو يعرف منذ متى وهما يواجهان وحدتهما هذه والطريق الطويل الذي يكتنفهما هذا.

النباتات البكر تتطاول بحرية بدائية، وتتضح بحيوية برية، وتضج وهي غضة بأغنية دفينة لطائر هانىء بالخضرة التي تغزو الحياة هنا، أو باصطفاق جناح لطائر نزق هناك، وقد يستبيح صمتاً مؤقتاً نداء موحش لجنس أو جوع، وهما يمتدان يستطيلان مثل شجرتين عملاقتين، وهو قد ضاق بأخيه، صار يكتوي به، يحس به عذاباً فاجعاً متواصلاً، فهو يفتش، يحيل النظر في الأرض المنفسحة أمامه برخاء.

كان الرجل هذا يمتد مع الأرض يتطلع في أرجائها كما لو أنه ينتشر فوقها أو يتضاءل فينكفىء نحوها كما لو أنه يغوص في فجواته... حين انتبه إليه أخوه وقرأ القلق الغريب في عينيه قال:

ــ ما الذي يشغلك فتبحث عنه، لقد تركنا خلفنا أغنامنا وزرعنا فما الذي ترجوه هنا؟

حدق بثبات في عيني أخيه الطافحتين بالبراءة ولفه الصمت. لم يقل شيئاً إنما أطرق رأسه وظل يتقدم أخاه. وثانية راح يفتش ويحيل النظر مثل مأخوذ فانداح كرة أخرى سؤال أخيه:

ــ ما الذي تفتش عنه؟ دعني أساعدك عليه. إننا هنا لكي نحقق حياتنا... ألا ترى أننا وحيدان؟

ولم يقل شيئاً أيضاً. كانت العاصفة عاتية أقوى من الكلام، كانت شيئاً جديداً وغريباً عليه فضاعت الكلمات.

لم يأبه الأخ كثيراً لما لاح على خطوات أخيه، ولما راح يعلو نفسه ويرتسم على عينيه، إنما استسلم لخطواته وظل يتابع دربه معه حتى وقف هذا قريباً من شجرة غليظة الأغصان وظل ينظر بشبق إليها... خطا نحوها خطوات لاهفات وانتزع منها غصناً سرعان ما شذبه من فروعه الدقيقة وأوراقه حتى غدا عصا غليظة ثم عاد إلى أخيه الذي آلمه أن ينتزع من جسد الشجرة مثل ذلك العضو:

ــ لِمَ أنت تنتزع هذا من الجسد ذاك؟ أنت تؤلمها.

قال:

ــ لكي أطفىء هذا الذي جعل خطواتي تغادر مكانها، وعينيَّ تعميان ونفسي تثقل وتنغلق.

ــ وما الذي له مثل هذا الثقل عليك؟

سأل ببراءة حمل من حملانه اليت تركها خلف ظهره.

ــ هو هذا الذي يمزق صدري فلا أعرفه، لا أعرف له اسمًا.

صدقني إن قلت إنني لا أعرف له اسمًا ولكنه يتوغل في نفسي توغل النار في الهشيم.

ــ وما الذي أنت فاعله؟

ــ هو هذا الذي نويت عليه... هو هذا الذي لا بد منه، وليس منه فرار.

ــ هو ماذا بالله؟

ــ قتلك.

ــ قتلي؟!

صاح بكل صوته، بكل دوي جسده، بكل رغبته في الحياة.

ــ قتلك... نعم. لا بد من هذا.

ــ ولماذا؟

ــ لا أعرف، ولكن لكي أفرغ نفسي مما يعلق بها كما تعلق الحسكة في الصوف... لكي أنتزع منها هذا الحسك اللعين.

ــ وما الذي جعل الشيء هذا يصل إلى نفسك؟ منذ أيام وهي صافية كما هي عليه الآن هذه السماء. انظر لعل شيئاً مما في نفسك يزول. أنعم النظر في تلك الأرجاء البعيدة منها والتي تلوح كما تلوح صفحة النهر من بعيد... انظر إلى ذلك اللألاء الذي يغمرها فتبين مثل خط نور يتفجر بصمت وسكون...

ـ أنت لا تغريني بهذا الكلام... لا تقل شيئاً بعد... لقد آمنت بهذا الذي بين يدي وليس ثمة من خيار بديل.

ـ إذن فدعنا نفترق... دعنا نهيم على وجهينا، أحد منا إلى الشرق، وأحد منا إلى الغرب... كل منا يمضي إلى سبيل غير سبيل أخيه.

ـ كلا. سوف نلتقي... سوف ألتقيك أو أسمع صوتك، وسيتحقق ـ متأخراً ـ هذا الذي بين يدي الآن، أو تزداد قوة ومنعة فتطلبني وتبادرني بالقتل... كلا إنني لا أرى غير ما أراه الآن.

ـ سوف نتباعد كثيراً حتى أن أحداً منا لا يسمع صوتاً لأخيه ولا يرى منه ظلالاً.

ـ كلا. سوف نلتقي... الطرق ملتوية، وهي ليست متوازية كما ترى.

ـ هذه أفكار سوداء، وفعلتك ستكون سابقة لن تنسى على مر العصور.

ـ ليكن ما يكون.

ـ وإنك تؤسس قانوناً ليس شر منه، ستبيح تقاتل الإخوان.

ـ هم سيتقاتلون، إخواناً كانوا أم أعداءً. وهم حين يتقاتلون فلن يكونوا عندئذٍ إلا أعداءً.

ـ يا إلهي.. إلى هذا الحد! إلى هذا الذي يقتلع جذور الأمن من نفسي ويهزني مثل أعصار مع نبتة صغيرة في العراء... آه... إنك تجلب الحزن إلى نفسي، بل الهلع كل الهلع.

ـ لا بد مما ليس منه بد... لا بد من هذا الذي يدوّم في صدري مثل عاصفة هوجاء، مثل ريح سموم، مثل سم قاتل زعاف.

ـ يا لقلبي الذي كلما حاكمته وجدته يفيض بحبك... يا لهذا القلب المسكين الذي لا يعرف إلا هذا الذي يفيض به الآن.

ـ إذن تهيأ لمصيرك.

ـ لا محالة إذن، لا مندوحة من هذا الذي بين يديك والذي ستهتز منه الأرض وتصرخ منه السماء، وترتعش منه الأشجار بحيث تنفض عنها ثمارها كما لو أنها لم تخرج من صلبها ولم تكن حملتها ذات ساعة، ذات يوم.

أمسك برأسه... دفنه بين يديه، وبحزن لم يعرفه أعطى أخاه ظهره وطفق يقول: «سيتهشم رأسي، ستأكل مخي الغربان، سأكون طعاماً سائغاً للهوام، يا للسوء، يا للسوء».

وفي اللحظة التي رفع فيها الأخ عصاه ليهوي بها على رأس أخيه، كان هذا قد اندفع نحوه بخفة وعنف وانتزع العصا... أصبحت العصا بيده... رفعها عالياً بوجه أخيه وصاح:

ـ أبهذه تريد انتزاع روحي، أما فكرت بغير هذا؟ أما كان لك أن تفكر بغير أن تحول بدني إلى كوم من لحم بارد ومسيل من دم حار؟

شد قبضته على العصا، صارت بين أصابعه وعلى ساعده خفيفة مثل قصبة فجعل يهز بها أمام عينيه ويخاطبها:

«بكِ أنت يريد انتزاع روحي، وبك أنت أستطيع انتزاع روحه، ولكن لا... لا والله، لن أفعلها. القتيل ولا القاتل، سأتعذب مرة واحدة، أما هو فسيكون عذابه مضاعفاً وأبدياً».

التفت إلى أخيه وهتف بنفس العنف الذي كان عليه وهو يخاطب عصاه:

ـ سيكون عذابك مضاعفاً، فخذ هيا... لست مبالياً بما أنت مقدم عليه. هيا خذ إن كنت تريد امرأة أو سيادة أو ملكاً عظيمًا ودونك الأرض والسماء... خذ هذه العصا وخذ بها ما تريد.

ببرود الرجل الذي فقد دمه، مدّ يده بالعصا إلى أخيه... تلقفها هذا بجنون، وبعد أن كان مذعوراً استعاد نفس الأمن الذي كان عليه من قبل وتقدم من أخيه... رفع العصا بعنف الفعل الذي يعصف في قلبه وهوى بها على رأس أخيه وتفجر الدم. صاح ملء فمه، مِلءَ الأرض والسماء:

«الآن... لقد انتصرت».

* * *

تابع طريقه مخلفاً جثة أخيه تنام في العراء. ولكن الصوت الذي هدر مدوياً «أين أخوك» هزه بعنف وفجر فيه خوفاً مريعاً، فردَّ بصورة مخاتلة:

«أحارس أنا لأخي»؟

وتابع خطوات ثقيلة باردة والصوت يلاحقه، جري في دمه ويدوي في أرجائه مثلما يدوي الصدى في أرجاء هيكل مهجور.

في طريقه الواسع غير المطروق وهو يقطعه بغير هدى وجد نفسه مرة أخرى أمام أخيه كما لو أن هذا يتابعه أو يسابقه دون علم منه... اقترب منه، وقف على رأسه، ساكناً كان مثل زهرة قطفتها يد هوجاء وألقت بها على الأرض... بغضب انحنى عليه، التقطه بيدين قويتين، ألقاه على ظهره ومثل حمل زائد ثقيل لا مجال للتخلص منه ظل ينوء به وهو يردد ويقول:

«ثابت ومتحرك والتقينا، فكيف بنا إذا كنا متحركين»؟

وعلى امتداد الطريق الذي لا أول له ولا آخر كان عذابه يمتد، يتواصل، يكبر بلا حدود... كان العرق يسيل منه مثل لحظات الزمن التي تسيل من حوله مشبعة بالحرارة والضيق، وكان الصوت الهادر ما ينفك يطارده:

«ماذا فعلت»؟

يتفجر فيه، يشق في جسده مسارب لحمى طاغية ومسايل لنزيز بارد غزير:

«صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض».

وكان يزداد غضباً وإصراراً... كان يتمادى، يرفع رأسه من بين كتفي أخيه ويصرخ بصوت مجنون:

«هو ذا... هو ذا».

ثم ما يلبث أن ينادي بصمت نفسه، حيرته:

«ولكن كيف هو الخلاص... أين هو»؟

فتزداد محنته والجسد الصامت يزداد ثقلاً، يتكوم على ظهره مثل صخرة نائئة ألهبتها ريح سموم.

لبرهة وقد قطع شوطاً طويلاً، توقف الرجل وبحر العرق يغمره. توقف وسط الطريق وحيداً متعباً ثقيلاً ممتلئاً بألم ممض... أدار رأسه نحو كل اتجاه، وبيأس وغيظ ألقى بأخيه على الأرض. جثا قربه يغالب خدراً ونعاساً شديدين...

كان الوقت نهاراً ما يزال، والشمس تقف على جبهة السماء الغربية، تفتح عينها على سعتها مثل شاهد مروّع لا يملك إلا دهشة عينيه... فجأة نهض... أرسل بصره في كل اتجاه وصاح من بين كل أحماله ومحنته:

«هو ذا... هو ذا، ولكن أين الفرار، أين الخلاص»؟

ولم تهدأ ثائرته... استمر ينزف ألماً وغيظاً، وهو يشعر أنه ينقبض، يتقلص، يتحول إلى «قتيل» لم يمت بعد، تلعق جراحه وحوش الغاب، وتمتص دمه الثعابين:

«أنا ذا... أنا ذا، قاتل يقتل أخاه، حاسداً، مبغضاً متسلطاً، قل ما شئت ولكن كيف هو الخلاص»؟

وظل يصغي لصدى صوته يتردد في الآفاق الموحشة المترامية، وهو يستحضر صورته وهو يهوي بعصاه على رأس أخيه، ثم وهو يحاصر الآن بهذا الذي أثقل عليه بحياته ويثقل عليه بموته... أحس بالحمى تتناهبه، والعرق البارد يغمره كما لو أن طاقات السماء تنفتح عليه، ولما لم يجد شيئاً يحتمي به، انحنى على أخيه التقطه من جديد، وضعه على ظهره وجعل يهيم به، وبين آونة وأخرى ومن خلال دوامات العرق والبرد والغضب العاصف الممزوج بخيط من أسف كان يردد بصوت لا يجرؤ أن يسمعه، بل إنه لا يريد أن يقوله ولكنه ينبعث مثل نافورة ماء في أرض هشة التكوين:

«أليس هو هذا ما أردت، وهو الذي فعلت، فهل حققت شيئاً، وها هو ذا مزدوع على ظهرك لا تستطع منه فكاكاً وليس لك عنه من سبيل. أطهرت صدرك مما كنت تدعوه حسكاً لعيناً، أم هو الحسد الأعمى المذل والشهوة الطاغية وحب السلطان»؟

ولم يكن بمقدوره أن يعرف ماذا يفعل سوى أن يهيم، يحمل ثقل ذنبه على كتفيه، لا يستطيع أن يواصل حمله ولا أن ينزعه عنه، حتى حانت لحظة رأى فيها كالنائم أو الحالم صورة لقاتل يحفر حفرة لقتيل، يضعه فيها ويواريه التراب.

ودون أن يجعل للقبر علامة ما أولاه ظهره وانسل بحذر وترقب مشوبين بخوف غامض يطغي على انتصاره، يزيد من كثافته الصوت الذي ملأ آفاقه:

«ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك، تائهاً وهارباً تكون في الأرض».

وحتى أمسى في أرض بعيدة من قبر أخيه، فسيحة، خلاء، تمتد وتمتد بلا انقطاع وهو يواصل زحفه الهائم المجنون، طغت عليه علائم الانتصار، فعادت إليه نفسه المطمئنة الهادئة، ملأت رحابه البعيدة، فأطلق ضحكة مدوية مجلجلة، وأطلق العنان لخطوات واثقة قوية تنهب الأرض. وفي حين يستمر الصوت يلاحقه:

«تائهاً وهارباً تكون في الأرض».

كان هو يوثق خطاه في الأرض، يمضي في طريقه جباراً سادراً، مفعماً باليقين بأن هذا الذي يمتد أمامه سوف يضيق به، يضيق إلى أحد أنه يتمنى لو يكون له جناحان يحلق بهما فيرتقي ظهر تلك التي فوق رأسه، بل لو يكون بمقدوره اللحظة أن يرتقي، أن ينزع نفسه عن هذه التي تحت قدميه.

□ □ □